•

.

📍 حتميات نبوية

📢 رُوِيَ عن رسول الله (ص) أنه قال: "مَنْ أَحْسَنَ فيما بَقِيَ مِنْ عُمُرِهِ لَمْ يُؤاخَذْ بِما مَضى مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فيما بَقِيَ مِنْ عُمُرِهِ أَخَذَ بِالأَوَّلِ وَالآخِرِ".

لا تَقُلْ: إِنَّ الأمر قد فاتَ، ولم يَعُدْ في الإمكان أن أُحسِنُ وأُصلِحَ وأُغَيِّرَ، إِنَّ كاهلي مُثْقَلٌ بالأخطاء والخطايا والمعاصي والذنوب، وأبواب الرَّحمة باتَتَ مسدودة في وجهي، ولم أعد لائقاً للوُفود على اللّه، وُفود المستغفر التائب، والنادم الرَّاجي.

وقد تَتَذَكَّرُ ما جنَيت على نفسك، وما أوقعتَه عليها من

ظلم وجور، وما أوقعتها فيه من المهالك، وما ارتكبتَه من الفواحش والموبقات، فتراه عظيماً وثقيلاً ثِقْلَ الجبال، فتحدِّثُ نفسك قائلاً: أَيُعقَلُ بعدَ هذا أن يقبلني اللّٰه، وكيف يقبلني ووجهي حالِكُ السَّواد مِمّا كان مني؟! وكيف أَمْحو هذا التاريخ الطويل من المعاصي والمخازي؟!

وقد يأتيك الشيطان متجَسِّداً في صديق لك، أو حميم، أو وَسيلة إعلامية، أو مقالة، ويقول لك: قد فاتَ الأوان، فلا تُشغِلْ نفسك بالتغيير، أَنْتَ عاجزٌ عن الإقلاع عمَّا اعتدتَ عليه، ولن يَفْرُقَ الحالُ معك، تغيَّرتَ أم لم تتغيَّر، تبتَ أم لم تَتُبْ، فأنت مُثقَل بما فعلت، ولن يغفر اللّٰه لك، لقد أوصد في وجهك الأبواب.

هكذا يُفَكِّرُ كثيرُ من العُصاة المُذنبين، الذين ابتُلوا بالذُّنوب والمعاصي وأكثروا منها، وهذا تفكير خاطِئٌ، وَوَهمٌ لا حقيقة اللّٰه، فإن اللّٰه الرَّحمن الرحيم لا يُغلِقُ باب التوبة في وجه أحد، حتى ولو كان من عُتاة الجاحدين المُذنبين، بل إنَّه لَيَدعوه مرة بعد مرة إلى

التوبة، لأنه يريد صلاحه ونفعه، فلم يخلقه الله لِيَشقى بذنوبه ومعاصيه، ولم يخلقه ليعذبه بآثار ظلمه لنفسه، بل خلقه لِيَتكامل ويتسامى، ولِيَكون سعيداً في دنياه وفي آخرته، ولذلك نراه سبحانه لا يمنع ذلك العاصي ما يحتاج إليه، بل إنه َليرزقه حتى حال عِصيانه، يُحسِنُ إليه رغم إساءته له ولنفسه، يقابله العبد بالذنوب والعصيان والجحود، فيقابله هو بالخَير والرَّحمة، بل يتحبَّبُ إليه بالنِّعَم، ويحيطه بفضله وآلائه، لعله يَستفيق مِنْ سَكْرَة ذنوبه، ويَرعوي عن انحرافه، وإنَّه لَيَسْتُر عليه بكرمه، ويُؤَخِّر عقوبته بحلمه، وهو إن تاب وأناب، ونَدِمَ على ما كان، وعَزَمَ على تغيير مجرى حياته نحو الأفضل، وإصلاح ما فاتَ، فإنَّ الله تعالى لا يجعل ما كان من معاصي التائب والذنوب حائِلاً يحول بينه وبين التوبة، بل تَجُبُّ التَّوبة النَّصوحَ ما كان قبلها، ويقال للعبد التائب: ها قد وُلِدتَ مِنْ جديد فاستأنف العمل، وإلى هذا يشير قول رسول الله (ص) المتقدم: "مَنْ أَحْسَنَ فيما بَقِيَ مِنْ عُمُرِهِ لَمْ يُؤاخَذْ بِما مَضى مِنْ ذَنْبِهِ".

فأمّا لَوْ أَصَرَّ العاصي على عصيانه، والمُذنب على ذنوبه، وتابع على الإساءة والظلم لنفسه، ولم يُبْدِ استعداداً لأي تغيير، عُوقِبَ بما كان منه مِنْ أَوَّلِ ذَنْبٍ إلى آخر ذَنْبٍ أذنبه، فتجَسَّدت ذُنوبُه شَقاءً وتَعاسَةً وقَلَقاً وتَوَتُّراً في الدنيا، وتَجَسَّدَت جحيماً في الآخرة.

هذه هي الحتمية التي يَكْشِفُ عنها رسول الله (ص) في حديثه الشريف: مَنْ أَصْلَحَ حالَه وأَحْسَنَ أعمالَهُ فيما بقي من عمره، غَفَرَ الله له ذنوبَه، ومَحى الملائكةُ اسمَه مِنْ سِجِلِّ العُصاةِ المُذنبين، ومَنْ خَتَمَ عُمُرَهُ بالذنوب والظُّلم لنفسه أو لغيره حُشِرَ يوم القيامة وظهره ينوءُ بأوزار ما كان منه، ثم يلقى مصيراً بئيساً من العذاب والشقاء في النار.

✍️ السيد بلال وهبي